المواطن والسياسة في العراق:
رفضٌ علني ودعمٌ خفي!

أ.م. د. مصطفى سوادي جاسم

00964- 7710122232
Alfaidcenter2011@gmail.com
العراق - بغداد - الكرادة

يشهد الواقع السياسي في العراق ظاهرة لافتة تتمثل في ازدواجية الموقف الشعبي تجاه العملية السياسية، فمن جهة تعلو الأصوات الرافضة للنظام السياسي القائم متهمةً إياه بالفساد وسوء الإدارة، ومن جهة أخرى تستمر الأحزاب التقليدية في الحصول على دعم جماهيري في الانتخابات، وهذه الظاهرة تطرح تساؤلات جوهرية حول أسباب هذا التناقض، والعوامل التي تدفع الناخب العراقي إلى التصويت لأحزاب يعلن رفضه لها في الخطاب العام!!

◆ **قراءة في شخصية الفرد العراقي من منظور نفسي في سياق الازدواجية السياسية**

عند الرجوع للأدبيات النظرية التي ناقشت مفهوم الازدواجية التي يعيشها الفرد العراقي تجاه القضايا المختلفة ولا سيما السياسية منها والتي عُدّت ملازمة لكثير من سلوكاته؛ نجد أن هناك عواملا عدة أسهمت في ذلك؛ فالازدواجية في مواقف الفرد العراقي تجاه العملية السياسية ليست مجرد تناقض ظاهري، بل هي نتاج عوامل نفسية واجتماعية متراكمة، فهي انعكاس لآليات التكيف مع واقع سياسي مضطرب، إذ يتأرجح الفرد بين الرغبة في التغيير والخوف من نتائجه وفقا لمشاعره المتغيرة، لذا يقول بول غودمان: "الناس لا يصوتون بناءً على الحقائق، بل بناءً على مشاعرهم"، إذ تشرح هذه المقولة كيف تؤثر العوامل العاطفية، مثل الخوف من التغيير أو الانتماءات الطائفية، في قرارات المواطنين كناخبين ومشاركين في العمل السياسي.

ولفهم هذه الظاهرة، لا بد من النظر إلى البعد النفسي العميق الذي يحكم سلوك المواطن بدلًا من الاكتفاء بتفسيرها على أنها مجرد "تناقض" أو "نفاق سياسي".

ومن العوامل المهمة التي ممكن أن تكون تفسيرا علميا وموضوعيا لهذه الظاهرة ما يأتي:

1. الازدواجية كآلية نفسية للتكيف

تعكس ازدواجية الموقف السياسي للفرد العراقي استجابة نفسية معقدة لواقع متناقض من منظور علم النفس الاجتماعي، إذ يمكن تفسير هذا السلوك من خلال ما يُعرف بـ"التنافر المعرفي" (Cognitive Dissonance)، إذ يعيش الفرد تناقضًا بين معتقداته وسلوكاته، مما يدفعه إلى تبني مواقف متناقضة لتخفيف التوتر النفسي؛ فعلى سبيل المثال، قد يرفض العراقي النظام السياسي بسبب الفساد، لكنه في الوقت ذاته يشعر بالحاجة إلى دعم حزب معين لضمان مصالحه أو مصالح مجتمعه الفرعي.

2. تأثير الصدمات الجماعية والتاريخية

مرَّ العراق بعقود من الحروب والصراعات، مما أثَّر بشكل عميق على العقلية الجمعية وفقًا لعلم النفس السياسي، فإن المجتمعات التي تعرضت لصدمات متكررة تميل إلى تطوير "عقلية الحصار" (Siege Mentality)، إذ يصبح البقاء والاستقرار أولوية قصوى، حتى على حساب المبادئ السياسية، هذا يفسر لماذا قد يعارض المواطن العراقي الأحزاب علنًا، لكنه يصوت لها خوفًا من الفوضى أو خسارة الامتيازات التي تقدمها.

3. ثقافة الجماعة مقابل الفردية

يتميز المجتمع العراقي، مثل العديد من المجتمعات الشرق أوسطية، بكونه مجتمعًا جماعيًا (Collectivist Society)، إذ تلعب العلاقات العائلية والقبلية والطائفية دورًا أساسًا في تشكيل القرارات السياسية، ففي مثل

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

هذه المجتمعات، يواجه الفرد صعوبة في اتخاذ قرارات سياسية مستقلة تمامًا عن محيطه الاجتماعي حتى لو كان يؤمن بأهمية التغيير، فإنه غالبًا ما يجد نفسه مضطرًا للتصويت وفقًا لما تمليه عليه جماعته خوفًا من العزلة أو العقوبات الاجتماعية غير المباشرة.

4. الخوف من التغيير والمجهول

من الناحية النفسية، يميل الإنسان إلى تفضيل الوضع القائم (Status Quo Bias)، حتى لو كان غير مثالي، بسبب الخوف من التغيير غير المتوقع وهذا ينعكس في السلوك الانتخابي العراقي، حيث يفضل البعض دعم الأحزاب القائمة رغم انتقاداتهم لها، خشيةً من أن تؤدي البدائل الجديدة إلى أوضاع أكثر سوءًا أو عدم استقرار سياسي.

5. تأثير الإعلام والدعاية الحزبية

تعزز الأحزاب السياسية هذه الازدواجية من خلال الخطاب الإعلامي الذي يخلق مزيجًا من "التخويف والتطمين"، فمن جهة يتم تصوير الخصوم السياسيين على أنهم خطر يهدد استقرار البلاد، ومن جهة أخرى، تُقدَّم الأحزاب الحاكمة كـ"أقل الشرور" أو "الضامن الوحيد للاستقرار"، مما يجعل المواطن عالقًا في معادلة نفسية بين رفض الفساد والخوف من البديل المجهول.

6.العوامل التاريخية والسياسية

ترجع جذور هذه الازدواجية إلى عوامل تاريخية وسياسية متداخلة، فمنذ سقوط النظام السابق عام 2003، تشكّل النظام السياسي العراقي وفق نموذج ديمقراطي تعددي يعتمد على المحاصصة الطائفية والعرقية، هذه البنية عززت الانقسامات المجتمعية وأنتجت شعورًا عامًا بعدم الرضا، لكنها في الوقت ذاته جعلت بعض الفئات ترى في الأحزاب القائمة وسيلة للحفاظ على مصالحها داخل المشهد السياسي.

كما أن التجارب السابقة مع التغيير السياسي، سواء عبر الاحتجاجات أو مقاطعة الانتخابات، لم تؤدِ إلى تحولات جذرية، ما رسّخ لدى كثير من الناخبين قناعة بأن التغيير الحقيقي مستحيل ضمن المعطيات الحالية، ومن ثم يفضلون دعم الأحزاب التي تمثل "أهون الشرّين" بدلًا من ترك الساحة السياسية فارغة لخصومهم.

7. البعد الاجتماعي والاقتصادي

تلعب العوامل الاجتماعية والاقتصادية دورًا مهمًا في تفسير هذه الظاهرة، إذ تعتمد الأحزاب السياسية في العراق على شبكات واسعة من الزبانية السياسية، إذ توفر وظائف مادية ومساعدات لأنصارها، ما يجعل كثيرًا من الناخبين، لا سيما من الطبقات الفقيرة، مضطرين لدعم الأحزاب التي توفر لهم مصدر دخل أو خدمات مباشرة.

◆ **أمثلة واقعية عن الازدواجية**

1.الانتخابات والنتائج المتناقضة: على الرغم من تصاعد الدعوات إلى مقاطعة الانتخابات في العراق، لاسيما بعد احتجاجات تشرين 2019، شهدت الانتخابات البرلمانية في 2021 مشاركة عدد كبير من الناخبين الذين صوّتوا للأحزاب التقليدية نفسها التي كانوا ينتقدونها بشدة.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

2.خطاب الاحتجاج مقابل التصويت: في المظاهرات، يهتف المحتجون ضد الفساد والمحاصصة الحزبية، لكن عند الانتخابات، نجد أن الكثيرين يصوتون لأحزابهم بناءً على الانتماء الطائفي أو القومي، وليس على أساس البرامج السياسية.

3.مواقف السياسيين أنفسهم: بعض القادة السياسيين ينتقدون النظام السياسي في الإعلام، ولكنهم يعملون ضمنه ويستفيدون منه، وهو ما يعكس ازدواجية ليست فقط عند المواطنين، بل أيضًا عند الفاعلين السياسيين.

4.رفض الفساد والمشاركة فيه: يندد الكثيرون بالفساد وينتقدون الرشوة في الخطاب العام، لكنهم في حياتهم اليومية قد يدفعون الرشاوى لتسيير معاملاتهم أو يستفيدون من علاقاتهم للحصول على امتيازات غير قانونية.

5.الهوية الوطنية مقابل الولاءات الفرعية: يرفع البعض شعارات الوحدة الوطنية ورفض الطائفية، لكنهم في الانتخابات أو التعيينات الوظيفية يفضلون أفرادًا من طائفتهم أو عشيرتهم، حتى لو كانوا أقل كفاءة.

6.معارضة التدخلات الخارجية ودعمها ضمنيًا: كثيرون يرفضون علنًا التدخلات الأجنبية في الشأن العراقي، لكنهم في الوقت نفسه يدعمون قوى سياسية أو شخصيات مرتبطة بجهات خارجية، لتحقيق مصالحهم الشخصية أو الفئوية.

◆ خاتمة

تعكس الازدواجية بين الرفض العلني والدعم الخفي للأحزاب السياسية تعقيدات المشهد العراقي، إذ تتداخل العوامل السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية في تشكيل سلوك المواطنين كناخبين وسياسيين، وبينما تتكرر هذه الظاهرة في كل دورة انتخابية، يبقى التحدي الحقيقي متمثلًا في إيجاد بدائل سياسية قادرة على استقطاب الناخبين بعيدًا عن المحاصصة والزبانية، مما قد يؤدي إلى كسر هذه الحلقة المفرغة على المدى الطويل...

إذ "لا يمكنك أن تغيير شيئاً وأنت تصوت للأمر نفسه في كل مرة"

ألبرت أينشتاين

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة